الفصل الخامس

الإسلام والوعد المقدس

وجاء محمد ﷺ مصدّقاً لمن قبله من الرسل ، مصدّقاً بآيات إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، لم يجب ما قبله ولم ينسخ ما سبق ولكن أتم مرحلة التطور فى كمال الأديان السماوية . (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسمعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون[1]) .

ولقد ذكرت هذه الأديان السماوية فى القرآن الكريم بأنها الإسلام وأن أتباعها ومعتنقيها والمؤمنين بها مسلمون (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون)[2] وعن إبراهيم عليه السلام (ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين[3]) .

فالإسلام هو عقيدة السماء منذ بعث الأنبياء على وجه الأرض وكانت رسالة الله إلى عباده على لسان أنبيائه منذ نوح حتى محمد عليهم السلام أجمعين (إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين

---

(١) آل عمران آية ٨٤ .
(٢) المائدة آية ١١١ .
(٣) آل عمران آية ٦٧ .

ذريةً بعضها من بعض والله سميعٌ عليمٌ[1]) وجاء كلّ نبى مصدقاً لمن قبله من الأنبياء والرسل (إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون[2]) .

وفى لوقا « وقال لهم هذا هو الكلام الذى كلمتكم به وأنا بعد معكم أنه لابدّ أن يتم جميع ما هو مكتوب عنى فى ناموس موسى والأنبياء والمزامير[3] » وفى أعمال الرسل « أيها الرجال الإخوة بنى جنس إبراهيم والذين بينكم يتقون الله إليكم أرسلت هذا الخلاص ؛ لأن المساكين فى أورشليم ورؤساءهم لم يعرفوا هذا . وأقوال الأنبياء التى تقرأ كلّ سبت تمحوها إذ حكموا عليه[4] » .

فالمسيح عيسى بن مريم قد بعث إلى بنى إسرائيل كما بعث إلى الناس جميعاً لا فرق بين يهودى وأممى « وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدئاً من أورشليم[5] » ، كما بعث محمد إلى قومه وعشيرته أوّلا ثم كانت رسالته إلى العالم أجمع (وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إنّى برىء مما تعملون[6]) .

والإسلام كما ذكر فى القرآن هو دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى

---

(١) آل عمران آية ٣٣ - ٣٤ .
(٢) المائدة آية ٤٤ .
(٣) لوقا ٤٤ : ٤٤ .
(٤) أعمال الرسل ١٢ : ٢٦ - ٢٧ .
(٥) لوقا ٢٤ : ٤٧ .
(٦) الشعراء آية ٢١٤ - ٢١٦ .

ومحمد وكلّ الأنبياء ومن تبعهم من الناس ، وليس فى التوراة أو الإنجيل ما ينقض ذلك . فالإسرائيليون نسبة إلى إسرائيل وهو يعقوب وقد دعى بإسرائيل أى المجاهد فى سبيل الله تكريماً له ، واليهود نسبة إلى دولة يهودا وكان الفرس أوّل من أطلقها على الإسرائيليين حين نسبوهم إلى دولتهم فهى لا تعنى ديناً وإن غدت تعنى كلّ من يدين بالشريعة الموسوية ، والعبرية من عبرى ولا تعنى كاليهودية ديناً كما لا تعنى جنسيةً معينةً وكان الكنعانيون أوّل من أطلقها على إبراهيم وذريته كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

والمسيحية هى أيضاً نسبة إلى المسيح والنصرانية نسبة إلى الناصرة حيث ينسب السيد المسيح وقد وردت فى القرآن صفة لأتباع المسيح وشاعت فى اللغة العربية على هذا المعنى ، ويشيع اصطلاح مسيحى ومسيحية فى اللغات الأوربية ولا تعرف هذه اللغات مصطلح نصرانى ونصرانية ، أما القبطية والأقباط فتطلق على كلّ من يدينون بالمسيحية فى مصر ، وهم فى الأصل أتباع المذهب اليعقوبى وإن تجاوزتهم إلى غيرهم من أتباع المذاهب المسيحية الأخرى فى مصر جوازاً ، وعلى هذا القياس نسب الأوربيون الإسلام إلى محمد فقالوا المحمدية وقالوا عن المسلمين المحمديين .

ولم يرد فى التوراة مسمّى للعقيدة اليهودية وكلّ ما جاء قريباً من هذا المعنى أنها بركة الرب التى حلّت فى إبراهيم وذريته ويبدو أنها بركة الرسالة على ما يظهر من قصة يعقوب وعيسو مع أبيهما أسحٰق حين أراد إسحٰق أن تكون بركته لعيسو واحتالت امرأته ليعقوب حتى تكون له بركة أبيه بدل أخيه عيسو . وذكرت فى سفر الخروج على أنها عهد الرب إلى بنى إسرائيل « وأخذ موسى الدم ورش على الشعب وقال هوذا دم العهد الذى

قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال[1] » وليس فى هذا ما يدل على صفة أو اسم .

وفى المسيحية أنها ملكوت السموات وملكوت الله وأنها العمادة باسم الآب والابن والروح القدس وأنها التكريز باسم الرب وكلّ هذه صفات وليست مسمّيات ، أما فى الإسلام فقد جاءت التسمية صريحةً قاطعةً للعقيدة فهى الإسلام أو الدين الإسلامى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً)[2] .

فالإسلام ليس ديناً جديداً يبشّر به محمد ﷺ وإنما هو الدين الذى بعث به إبراهيم وموسى وعيسى ، دين عبادة الله وحده لا شريك له ، الوحدانية المطلقة المنزهة عن كل شرك وهى آخر مرحلة من مراحل التطور فى إدراك حقيقة الله ، تلك المراحل من التطور التى مرّت بها رسالة السماء منذ بعث نوح حتى محمد عليهما السلام .

(إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً[3]) .

ففى محمد ﷺ انتهت بركة إبراهيم ورسالته كما انتهت من قبل إلى إسماعيل وإسحٰق ويعقوب وموسى عليهم السلام .

وقد جبت رسالة يسوع كما قلنا دعوى إسرائيل فى التميز والاختيار ونسخت أن تكون الأرض المقدسة أو أرض الميعاد لغير المؤمنين بملكوت السموات فاللعنة تحلّ بإسرائيل كغيرهم من الأمم حين يضلّون « ياأورشليم ياأورشليم ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت

---

(١) خروج ٢٤ : ٨ .
(٢) المائدة آية ٣ .
(٣) النساء آية ١٦٣ .

أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا . هوذا بيتكم يترك خراباً ، لأنى أقول لكم إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب[1] » .

واللعنة تلاحقهم فى القرآن بكفرهم وضلالهم كما لاحقتهم من قبل فى الإنجيل (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجّداً وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حقٍّ وقولهم قلوبنا غلفٌ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلّا قليلاً . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً،وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفى شكٍّ منه مالهم به من علم إلّا اتّباع الظنّ وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً . فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلّت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الرِّبا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال النّاس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً[2]) .

والإرث كما قلنا هو إرث البركة والرسالة والاختيار للأرض المقدّسة وليس للشعب . ووجه الاختيار للشعب أى شعب أنه اختصّ بالرسالة كما اختص بنو إسرائيل برسالة موسى والأنبياء ولن تحلّ فى الشعب المختار بركة العهد وبركة الرسالة مالم يؤمن ، ولن تكون له الأرض الموعودة ما لم تحلّ فيه بركة العهد وبركة الرسالة معاً ، فإذا تجاوزتاه فقد حرم منها إلى الأبد ، فإذا اختص بنو إسرائيل بالرسالة فقد حلّت فيهم بركة العهد

---

(١) متى ٢٣ : ٣٧ - ٣٩ .

(٢) النساء آية ١٥٤ - ١٦١ .

وكانت لهم الأرض الموعودة ما ظلّوا قائمين على العهد ، فإذا تجاوزوه وتجاوزتهم الرسالة لم يكن لهم فى الأرض الموعودة نصيب ولن تكون لهم عودة إليها .

أما العودة التى أشار إليها أنبياؤهم فقد كانت قبل ظهور المسيح حين خلّصهم كورش الفارسى من سبى بابل وعاد بهم إلى أورشيم فأقاموا جدرانها وأعادوا بناء الهيكل ولم تشر التوراة إلى عودة ثانية لإسرائيل ، إلّا عودتهم الروحية يوم القيامة وهى التى يشير إليها حزقيال كما تشير إليها آية الإنجيل « أنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب » وكانت تلك الآية حين أخذ المسيح عليه السلام يخبر حوارييه ويتنبأ لهم بعزم اليهود على صلبه . وفى هذه العودة يتساوون بغيرهم فهى عودة البعث والنشور . وإلى تلك العودة الروحية لإسرائيل يشير القرآن بقوله : (وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً)[1] .

ولقد قلنا من قبل إن الاختيار للأرض المقدسة وليس للشعب وهى الأرض التى باركها الله لتكون قدس أنبيائه وإشراقة رسالاته إلى العالمين وهى أرض الميعاد ، التى وعد الله بها الصالحين من عباده وآثر بها إبراهيم وذريته من بعده كما آثرهم بالبركة والرسالة حتى تكون الأرض المقدسة طهوراً ومن عليها مطهرين . (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين[2]) وينقضى هذا الإيثار بشيوع الرسالة بين العالمين من كانوا من ذرية إبراهيم أو من غير ذريته ، فالأرض قد باركها الله للعالمين جميعاً لا لإبراهيم ولا لذريته وحدهم ولكنها الأرض المقدسة عند كل من آمن

---

(١) الإسراء آية ١٠٤ .

(٢) الأنبياء آية ٧١ .

برسالات السماء (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكلّ شيءٍ عالمين[1]) .

وجبّ القرآن كالمسيحية فى ذلك ما أدعت إسرائيل من تميّز على أبناء إبراهيم الآخرين ومن استعلاء على غيرهم من الخلق فكل أبناء إبراهيم أمّة واحدة (إنّ هذه أمتكم أمّةً واحدةً وأنا ربُّكم فاعبدون[2]) بل صان الدين الإسلامى أتباعه ومعتنقيه عن التمايز والاستعلاء (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم[3]) .

وفسّر البيضاوى تلك الآية الكريمة بقوله : « أى خلقناكم من أب وأم فالكل سواء فى ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب ، وقيل الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب ، ليعرف بعضكم بعضاً لا للتفاخر بالآباء والقبائل » .

والإسلام دعوة التوحيد إلى الناس كافة لا فرق بين عربىٍّ وعجمى أو أسود أو أبيض ، أو من ذرية إبراهيم أو غير ذريته كقوله تعالى : (ومأرسلناك إلّا كافّة للناس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون[4]) وقوله عليه السلام « بعثت إلى الناس كافة » وقوله « أنا رسول من أدركت حيًّا ومن ولد بعدى »[5] . وعن أبى هريرة « قيل يارسول الله من أكرم الناس ؟ قال : أتقاهم . فقالوا : ليس عن هذا نسألك . فقال : فعن معادن العرب تسألونى ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم

---

(١) الأنبياء آية ٨١ .

(٢) الأنبياء آية ٩٢ .

(٣) الحجرات آية ١٣ .

(٤) سبأ آية ٢٨ .

(٥) الأحاديث فى كتاب الطبقات الكبير لابن سعد جـ ١ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

فى الإسلام إذا فقهوا ، وإن كان الله تعالى قد حكم بأن الأكرم هو الأتقى ولو أنه ابن زنجية لغية ، وأن العاصى الكافر محطوط الدرجة ولو أنه ابن نبيين[1] » .

وقال عليه السلام فى حجة الوداع « يأيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربىٍّ على عجمىٍّ فضل إلّا بالتقوى » .

والناس فى الإسلام سواء وذلك أسمى ما يصل إليه الارتقاء الإنسانى فى سلم التطّور الحضارى وما كان الرسول عليه السلام إلّا ليسوّى بين الناس جميعاً لا يؤثر أحداً على أحد أو يتيه بإنسان على إنسان ، وفى قصّة ابن أم مكتوم ما يبرز هذا المعنى الجليل فقد أتى رسول الله وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام ، فقال : يارسول الله علمنى مما علمك الله . وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم ، فكره رسول الله قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه ، فنزلت هذه الآيات (عبس وتولّى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعلّه يزّكى . أو يذّكّر فتنفعه الذكرى . أماً من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك ألّا يزكّى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى[2]) . فكان رسول الله يكرم ابن أم مكتوم ويقول إذا رآه « مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى ! » واستخلفه على المدينة مرتين[3] .

والإسلام فى شعائره عنوان المساواة التامّة بين الناس جميعًا فالناس فى الصلاة يقفون صفوفًا إلى جوار بعضهم البعض كلٌّ فى مكانه . الذى قدم عليه لا ينزعه إلى غيره ، ولا يتقدّم سوى الإمام ومن عساه يكون من

---

(١) مقدمة كتاب الأنساب لابن حزم الأندلسى ص ١ .
(٢) عبس آية ١ - ١٠ .
(٣) تفسير البيضاوى .

رجال العلم ، والناس يوم الحج الأكبر يقفون بعرفة فى أردية واحدة يدعون ويبتهلون لا فرق بين صغيرهم وكبيرهم فالكلّ فى عقيدة السماء سواء .

والتميز الذى ادعاه بنو إسرائيل واتخذوا من آى التوراة دليلاً عليه هو تميّز الإيمان والتقوى لا تميز العنصر أو النسب فهم كعادتهم قد فسّروا التوراة تفسيراً ماديًّا وجعلوا من عهود الرب صفقةً تجاريةً . كما يقول « ويلز » عقدها الرب مع أبيهم إبراهيم لصالحهم . وهو التميز الذى أنكرته المسيحية كما أنكره الإسلام ، بل إن السيد المسيح ليوغل فى دحض هذا التميز والاستعلاء إلاّ فى التقوى ومحبّة الله « الحق أقول لكم لم أجد ولا فى إسرائيل إيماناً بمقدار هذا ، وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحٰق ويعقوب فى ملكوت السموات . وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجة[1] » .

والإنسان بعمله لا بنسبه « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون . فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه وافعلوه . ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون[2] » والناس بأعمالهم لا بأقدارهم «وأكبرهم يكون خادماً لكم ، فمن يرفع نفسه يتّضع ومن يضع نفسه يرتفع[3] » .

فالفضل والتميز اللذين لبنى إسرائيل هما فضل البركة وتميز الرسالة مما لا ينكره الإنجيل كما لا ينكره القرآن . (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنّى فضّلتكم على العالمين)[4] .

---

(١) متى ٨ : ١٠ - ١٢ .
(٢) متى ٢٣ : ٢ - ٣ .
(٣) متى ٢٣ : ١١ - ١٢ .
(٤) البقرة آية ١٢٢ .

ويزول ذلك الفضل وذاك التميز بانتقال البركة منهم إلى غيرهم وتجاوز الرسالة قومهم إلى أقوام آخرين ، بل إنهما ليزولا عنهم إذا ما ضلّوا عن ذكر ربّهم وكفروا بأنعمه وخالفوا وصاياه ، بذلك قالت التوراة وبه قال الإنجيل والقرآن .

وقد ضلّ بنو إسرائيل قبل أن يبعث فيهم المسيح وظلّوا على كفرهم وبهتانهم بعد أن بعث إليهم وازدادوا كفرًا وبهتانًا قبل رسالة محمد وبعد رسالته ، بل إن كفرهم وبهتانهم كانا على حياة أنبيائهم ، لم ترُعْهم المعجزات ولم تَزعْهم كرامة الأنبياء . (ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيّدناه بروح القدس أفكلّما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون)[1] . ثم يمارون في الحق ويخدعون إيمانهم (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أُنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحقّ مصدِّقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبيّنات ثم اتّخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون)[2] .

بل إنا لنعتقد أن بنى إسرائيل كانوا عبرة للعالمين ضرب الله بهم مثلاً وجعل منهم موعظةً للناس ، فليس بعد من كرم بالنسب كرامتهم وليس بعد من اختير للرسالة وخصّ بالبركة قبلهم ولكنهم ضلّوا وهم ذرية إبراهيم وكفروا وهم من أرسل إليهم إسحٰق ويعقوب وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء فكان جزاء ضلالهم عذاب الدنيا والآخرة وكان جزاء كفرهم هوان الحياة طوال الحياة ولهم فى الآخرة جهنم وبئس المصير ، ليكونوا عظةً وعبرةً لمن لم يشرفوا بنسب ولم يكن لهم فضل الإيثار ، فإذا

---

(١) البقرة آية ٨٧ .

(٢) البقرة آية ٩١ - ٩٢ .

كان الله جلّت قدرته قد أنزل عذاب الدنيا والآخرة ببنى إسرائيل وهم ذرية إبراهيم ومن آثرهم الله بنعمة البركة والرسالة فلا ريب من عذاب شديد يحيق بكلّ من كفر وضلّ سبيل الله حتى ولو كان ابن نبيين فالناس فى ملكوت السموات سواء ولا فضل لعربىٍّ على عجمىٍّ إلّا بالتقوى .

ولقد ضرب القرآن ببنى إسرائيل مثلاً فى كثير من السور والآيات فهم من أنعم الله عليهم وفضّلهم على العالمين يكفرون بنعمة الله ويقتلون أنبياءهم فتحيط بهم اللعنة وينزل بهم عذاب شديد ، كذلك كان فى التوراة والإنجيل حتى لا يكون للناس من بعد عذر فى تقوى الله وطاعته .

ويجمع الإنجيل والقرآن على نعت بنى إسرائيل بالنفاق وتحريف الكلم عن مواضعه ففى متى « ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون » وفى القرآن (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون)[1] .

ومن قبيل هذا التحريف ادعاء أرض الميعاد حقا لهم وميراثاً عن أبيهم إبراهيم وادعاء التميز على شعوب الأرض وأن الله آثرهم وحدهم بالاختيار بتفسير التوراة على هواهم فممّا لا يقبله عقل أو منطق أن يؤثر الله قوماً من عباده على آخرين ما لم تكن هناك حكمة فى هذا الإيثار وممّا لا يقبله عقل أو منطق أن يكون الإيثار الالهى ماديًّا بعقار أو جاه تنتفى معه الحكمة والتأويل . فالإيثار الذى كان لبنى إسرائيل الذى يجمع عليه القرآن والإنجيل هو الإيثار الروحى لذرية إبراهيم وهو إيثار البركة والرسالة لا الصلة والانتماء ، وأرض الميعاد هى أرض البركة والرسالة وهى لمن حلّت فيهم البركة واهتدوا بهدى الرسالة ، وهذا هو ما عنته التوراة وما يعنيه الوعد الإلهى لإبراهيم .

---

(١) البقرة الآية : ٧٥ .

ولم تشر أسفار العهد الجديد إلى هذا العهد الإلهى الذى ردّدته أسفار العهد القديم إلّا بأن الوعد هو للموعودين بملكوت السموات سواء أكانوا من بنى إسرائيل أم من غير بنى إسرائيل .

ولم يشر القرآن إلى أرض موعودة لبنى إسرائيل يتوارثونها جيلاً بعد جيل أبد الآبدين ولم يذكر غير قصّة خروجهم من مصر وكيف أرسل إليهم موسى نبيًّا ورسولاً ليخلّصهم من ظلم المصريين وليصعد بهم إلى الأرض التى « باركنا فيها للعالمين » وكيف عصوا موسى وعبدوا العجل فضرب عليهم التيه فى بيداء سيناء أربعين عاماً ثم كيف كان ضلالهم وكفرهم بأنبيائهم فحقّ عليهم العذاب الموعود . ويضرب القرآن بذلك مثلاً لمن بغى وكفر بأنعم الله .

ومن خلال سور القرآن وما أنزل فيه عن إبراهيم وغيره من الأنبياء نرى تلك الصلة الوثيقة بين الرسالة التى بعث بها محمد ورسالات من سبقه من الأنبياء ، فمحمد قد بعث ليتم رسالة السماء ويكمل كما قلنا مرحلة التطور فى كمال الأديان السماوية ، تلك الأديان التى أشار إليها القرآن باسم الإسلام ، وكلمة الإسلام من التسليم لله ، والمسلم من كان إيمانه بالله ، ولله يسلم بذلك تسليماً لا تشوبه شائبة من شك ، أو شرك .

ويسهب القرآن فى ذكر من سبق من الأنبياء والرسل وكيف كان كلّ نبى منهم داعيًا إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له وكيف كان كلٌّ منهم مسلماً لله يدعو قومه إلى الإسلام وكيف كان موقف هؤلاء الأقوام ممن بعثوا إليهم من الأنبياء وكيف كان عذاب الله لمن لا يؤمن من هؤلاء الأقوام فلم يكن الله ليمهل تلك الأقوام إلى أجل الآخرة ، بل يفجأهم بالعذاب الشديد وهم عنه غافلون جزاء ما أساءوا إلى أنبيائه ورسله ، كقوم ثمود وعاد ولوط وبنى إسرائيل أنفسهم (وما كنّا معذّبين حتى نبعث رسولا) .

وترتقى صور هذا العذاب وتتطور بتطور العقيدة الدينية وارتقائها ، فصور العذاب المادى الدنيوى قد انقلبت إلى عذاب الآخرة حيث تجزى كلّ نفس بما كسبت ، فجاءت المسيحية تبشر بالتوبة وغفران الذنوب وجاء الإسلام بالرحمة ، وأن رحمة الله تسع كلّ شىء . وكانت فاتحة الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقد اتّخذ الوعد والوعيد قبل المسيحية والإسلام صوراً دنيويةً خالصةً ، فالوعد بالتملك أو إكثار النسل والبركة فى الحياة الدنيا والانتصار على الأعداء يقابلها الوعيد بالذل والعبودية والجوع والمرض والهزيمة والفناء ، ولعل ذلك كان سبباً فى تفسير اليهود لمرامى دينهم تفسيراً ماديا خالصا ارتبط فى أذهانهم بالتفوق والاختيار والحكم والسيطرة وامتلاك الأرض وقيام الدولة وبناء الهيكل والالتصاق بالأرض التصاقاً اختلطت فيه العقيدة الدينية بالآمال الدنيوية .

ولهذا خلا الإنجيل وخلا القرآن من تلك الصور المادية للثواب والعقاب الدنيوى وإن حفلا وعلى الأخصّ القرآن بالصور المادية لنعيم الآخرة فإن الذهن البشرى لم يكن ليتصوّر عذاباً أو بؤساً أو شقاءً إلا متصلاً بحياته على الأرض ، وما كان ليتصوّر النعيم إلّا فى تلك الصور البراقة التى تراود أحلامه وأمانيه فى حياته القائمة ، ثم ارتقى الذهن البشرى ليدرك أن حياة الأرض هى حياة فانية تعقبها حياة مخلدة فانفصلت صور الثواب والعقاب عن تلك الحياة الفانية لترتبط بالحياة المخلدة الباقية وأصبح الثواب ثواب الآخرة والعقاب عقاب الآخرة أيضاً وإن لبسا تلك الصور المادية للثواب والعقاب الدنيوى فقد أعدّت جهنم للكافرين والجنّة للمؤمنين ، ولا يعدو وصف جهنم والجنة ما نتصوره من مظاهرهما المادية ، ولعلّ الذهن البشرى فى ارتقائه الدائب إلى الكمال

يستطيع أن يفسر تلك الصور المادية تفسيراً آخر يتفق مع جلالها وعظيم خطرها . فالأديان السماوية قد خضعت لناموس التطور الذى خضعت له الحياة منذ الأزل حتى فى البرهان الذى أيّد الله به أنبياءه ، فبرهان نوح كان فى معجزة الطوفان والوحى إليه ببناء السفينة لينجو ومن معه من المؤمنين من خطر الطوفان ، وبرهان إبراهيم كان فى النار التى نجّاه الله منها فكانت برداً وسلاماً عليه ، وبرهان موسى كان فى عصاه التى تنقلب حيّة تسعى وفى اليد التى تخرج بيضاء من غير سوء ، وبرهان عيسى كان فى إحياء الموتى وإبراء المرضى ، أمّا برهان محمد فقد سما على تلك الظواهر المادية إلى خطاب العقل ومناجاة الضمير ، ليرى الإنسان وينظر ويفكّر بنفسه أين الهدى وأين الضلال ، أين الحقيقة وأين الباطل ، أين وحى العقل وأين وحى الخرافة ، فكان هذا الانتقال من عالم الحسّ إلى عالم الضمير بداية الكمال فى ارتقاء الذهن البشرى .

لهذا كان الخلاف بيّنًا بين التفسير اليهودى للوعود المقدسة وعهود الرب مع إبراهيم ـ وبين كل من التفسيرين المسيحى والإسلامى .

فاليهود قد فسروا تلك العهود تفسيرًا ماديًّا خالصًا فعبارة « أعطى هذه الأرض » فسّرت بمعنى الحيازة والتملك وكلمة « لنسلك » بمعنى الذات أو سلالة المولد بينما فسّرها المسيحيون بمعنى الاتحاد بالمسيح اتحاداً روحيًّا أى كل من آمن برسالة المسيح هم من نسل إبراهيم ، وأن أرض الميعاد هى أرض الملكوت وهى لكل من حلّت فيهم بركة المسيح وظفروا بنعمة التجديد .

ويأتى الإسلام فلا يذكر عن أرض الميعاد إلّا أنها الأرض المقدسة التى « باركنا فيها للعالمين » ولا يرد ذكر للإرث والتملّك أو أىّ عهد لإبراهيم مع الرب إلّا عهد البركة والرسالة حتى إذا ذكرت قصة موسى مع بنى

إسرائيل نجد ما يشير إلى الأرض التى كتبت لهم (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكًا وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إنّ فيها قومًا جبّارين وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبدًا ماداموا فيها فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون . قال ربِّ إنّى لا أملك إلّا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنّها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين[1]) .

وقد يبدو لأوّل وهلة أن عبارة « الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » تفيد معنى التملك وما يتبع التملك من حقوق التوريث ، ولكن الاستطراد يفيد أنهم حرموا وهم على أبوابها أربعين عاماً ضرب عليهم فيها التيه لعصيانهم وضعف إيمانهم حتى أن موسى دعا الله أن يفرق بينه وبين هؤلاء القوم الفاسقين ، فإذا لجوا فى عصيانهم فإن ما حرّم عليهم لسبب عارض ولزمن معين يحرم عليهم أبد الآبدين إذا ما انقلب هذا السبب العارض سبباً جوهريًا ، فإذا كان الله قد ضرب عليهم التيه أربعين عاماً حرم عليهم فيها دخول الأرض المقدسة لأنهم امتنعوا عن دخولها ، وضعف إيمانهم عن الثقة بنصر الله وخافوا بطش الجبارين ، فما بالك إذا عظم الإثم فإنه أولى بمضاعفة الجزاء . وإذا أجمعت الكتب السماوية المقدسة – التوراة والإنجيل والقرآن – على ضلال بنى إسرائيل وقد أجمعت على

---

(١) المائدة آية ٢٠ – ٢٦ .

ذلك فإن حرمانهم مما آثرهم الله به هو قرين آثامهم وعصيانهم لوصايا « الرب » وإن اللعنة لتحلّ بهم أبد الآبدين (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولّون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون[1]) .

وإن عصيان بنى إسرائيل وكفرهم بأنعم الله وآياته بعد أن آتاهم الكتاب والحكم والنبوة لقمين أن ينقلها عنهم إلى غيرهم (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين[2]) .

ويؤيّد ذلك ما قلناه من قبل وهو أن الوعد المقدس هو وعد البركة والرسالة ، وهما فى ذرية إبراهيم نبيا بعد نبيٍّ حتى محمد ﷺ ، وأنه حق لكل من آمن برسالة الأنبياء سواء أكان من ذرية إبراهيم أم غير ذريته ، وأن الأرض المقدسة هى للمؤمنين من هؤلاء ، وإن ذلك لينسخ دعوى بنى إسرائيل فى التميز والاختيار فلا نجد خلافاً حول ذلك فى مدلول الكتب المقدسة وأوّلها التوراة ، وسنرى أن هذا الوعد الإلهى قد تحقق برمته فى ذرية إبراهيم ، فكانت لهم الأرض المقدسة بغلبة أبناء إسماعيل على ما عداهم وانتشارهم فى تلك البقاع قبل وبعد امتداد الموجة الإسلامية الباهرة إلى تلك البقاع وأصبحت الأرض المقدسة حرمًا مباركًا فى كلّ أديان السماء .

ويؤكد القرآن ذلك فى صراحة ووضوح فى هذه الآية الكريمة (وإذ

---

(١) المائدة آية ٧٨ - ٨٠ .

(٢) الأنعام آية ٨٩ .

ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمّهن ، قال إنى جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذرّيتى ، قال لا ينال عهدى الظالمين[1]) .

فوراثة عهد إبراهيم هى لمن آمن بالرسالة التى بعث بها ، وليس لذريته أن تدّعى حق الوراثة فى عهده ما لم يؤمنوا برسالته فإذا امتدّ الإيمان إلى غيرهم كان لهم ما لذريته من حق عليه ، فالإيمان لا يمكن أن يكون احتكارًا لأمة أو جنس يتوارثه بحكم النسب أو صلات الدم ، وإنما الإيمان إيمان القلب من رعاه فى أىّ جيل وفى أىّ قبيل كان أولى بوراثة العهد من أبناء الصلب وأقرباء النسب ، فمن استقام على العقيدة فهو وريثها ووريث بشاراتها وعهودها ، ومن فسق عنها فقد فسق عن عهد الله وزالت وراثته لهذا العهد وما فيه من تكريم وتفضيل وبشارة وتمكين[2] .

ويسقط هذا كلّ دعاوى اليهود فى اصطفائهم واجتبائهم لمجرد أنهم ورثة إبراهيم وبنيه لأن هذه الوراثة قد سقطت عنهم بزيغهم وتخلّيهم عن العقيدة الإلهية الخالدة .

ومما يدل على وحدة الدين الإلهى من اليهودية إلى المسيحية فالإسلام أن القبلة الأولى للمسلمين كانت بيت المقدس حتى تحوّلوا عنها إلى الكعبة ، وليس التحوّل عنها إلى الكعبة لأنها مقام إبراهيم ومصلّاه ولا لأنها البيت الذى شارك فى بنائه إسماعيل أب العرب فيكون أبناء إسماعيل أولى بقبلتهم من قبلة أبناء إسحٰق ، ولكن الحكمة فى اختيار بيت المقدس قبلة أولى للمسلمين حتى يتأكد ذلك المعنى الكريم معنى وحدة الرسالة الإلهية منذ بعث بها إبراهيم حتى تمت على يد محمد ، وحتى لا يكون اختيار بقعة بالذات وإيثارها بالقداسة والتكريم إيثاراً على غيرها

---

(١) البقرة آية ١٢٤ .

(٢) سيد قطب فى ظلال القرآن جـ ١ ص ٨٤ .

فلله المشرق والمغرب ، ولا يكون اختيار بيت المقدس إيثاراً لذرية إبراهيم من إسحٰق واختيار الكعبة إيثاراً لذريته من إسماعيل فإن كليهما فى عهد أبيهما إبراهيم سواء ، ولعلّ فى اختيار بيت المقدس أوّلا ثم التحوّل عنه إلى الكعبة ما يرمز إلى تحوّل البركة والرسالة من ذرية إسحٰق إلى ذرية إسماعيل مع توكيد الوحدة الكبرى للرسالة الإلهية فى إبراهيم وانتهائها فى محمد ، فإن الله جلّت قدرته ، لو لم تكن له فى ذلك حكمة عليا لهدى رسوله إلى القبلة التى يختار منذ البداية ، فإن جعل لذلك سبباً فلأجل أن تبرز تلك الحكمة العليا وتستبين .

وكان هذا السبب حين حاجّ اليهود محمدًا فى مقامه بالمدينة فى حين أن من سبقه من الرسل كانت إقامتهم ببيت المقدس وأنه إن يكن رسولاً حقًّا فجدير به أن يصنع صنيعهم وأن يعتبر المدينة وسطًا فى هجرته بين مكة وبيت المقدس مدينة المسجد الأقصى . لكن محمدًا لم يحتج إلى طويل تفكير فيما عرضوا عليه ليعلم أنهم يمكرون به وأوحى إليه الله يومئذ على رأس سبعة عشر شهرًا من مقامه بالمدينة ، أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل[1] ونزلت الآية : (قد نرى تقلّب وجهك فى السماء فلنولّينّك قبلةً ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره[2]) .

وقد لا تغيب تلك الحكمة على ذوى الفطن بعد أن تحول المسلمون بقبلتهم عن بيت المقدس إلى البيت الحرام بمكة فإنه أول بيت رفع إبراهيم قواعده وذلك قبل بناء هيكل بيت المقدس ببضع مئات من السنين . فلم يكن الهيكل قبل ذلك وفى عهد البداوة غير خيمة اعتقد الشعب أن الله

---

(١) الدكتور محمد حسين هيكل ، حياة محمد . الفصل ١١ .
(٢) البقرة آية ١٤٤ .

يتجلى فيها للأنبياء والكهان ثم بنيت الخيمة من خشب يفكّ وينقل فى سنى التيه حتى أقام سليمان الهيكل بديلاً من الخيمة ومن المعبد الخشبى[1] .
وكان إبراهيم فى تجواله بأرض كنعان حين انحدر من حاران يقيم مذبحًا للرب حيثما تجلّى له وكان أوّل ما أقام من هذه المذابح حين تجلّى له الرب عندما اجتاز إلى « مكان شكيم إلى بلوطة موره[2] » وحين نقل من هناك إلى الجبل شرقى بيت ايل نصب خيمته وبنى هناك مذبحًا للرب[3] . وإلى هذا المكان كانت أوبته بعد خروجه من مصر . ولما اعتزل أخاه لوطا ونقل خيامه إلى « بلوطات ممرا التى فى حبرون » وأقام عندها « بنى هناك مذبحًا للرب[4] » ، وكان كل ذلك قبل أن يولد لإبراهيم ولد ، ولا يذكر بعد ذلك أن إبراهيم بنى مذابح أخرى للرب ، وقد اندثرت آثار تلك المذابح ولم يعد لبنى إسرائيل غير هيكل بيت المقدس وإن لم يكن لإبراهيم يد فى بنائه .
أما البيت الذى بناه إبراهيم وبقى خالدًا على الزمن فهو البيت الذى أقامه حيث أسكن ابنه إسماعيل وتفجرت بئر زمزم وإن لم تشر التوراة إليه إلاّ أن تاريخ العرب يؤكده ويذكره القرآن فى مواضع كثيرة . (إن أوّل بيت وضع للناس الذى ببكّة مباركًا وهدًى للعالمين . فيه آياتٌ بيّناتٌ مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا [5]) .
والحكمة فى اختيار بيت المقدس قبلة أولى للمسلمين ثم التحوّل عنه إلى الكعبة هى الحكمة فى توكيد هذا المعنى من وحدة الدين الإلهى وهو المعنى الذى أشار إليه القرآن وأكّده فى أكثر من موضع حين دعا ما سبق من

---

(١) عباس محمود العقاد - عبقرية المسيح ص ٣١ .
(٢) تكوين ١٢ : ٦ .
(٣) تكوين ١٢ : ٨ .
(٤) تكوين ١٧ : ١٨ .
(٥) آل عمران آية ٩٦ - ٩٧ .

أديان بالإسلام وحين قال إن الأنبياء السابقين كانوا مسلمين وبعثوا برسالة الإسلام ، ومما يؤيّد ذلك أن هيكل بيت المقدس قد دعى فى القرآن باسم « المسجد الأقصى » تمييزًا له عن المسجد الحرام وهو الكعبة (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنّه هو السميع البصير[1]) .

وترتبط بهذا المعنى أيضًا حكمة الإسراء والمعراج ففى الإسراء يسرى محمد بآثار من سبق من الأنبياء فيقف عند جبل سيناء حيث كلّم الله موسى ثم يقف مرةً أخرى عند بيت لحم حيث ولد عيسى وينطلق بعد ذلك إلى بيت المقدس حيث يلقى إبراهيم وموسى وعيسى فصلى معهم على أطلال هيكل سليمان ، ثم يرتقى المعراج مرتكزًا على صخرة يعقوب فيصعد به سراعًا إلى السموات فيلقى فى طريقه إلى سدرة المنتهى آدم ونوحًا وهارون وموسى وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس ويحيى وعيسى .

فحكمة الإسراء والمعراج فضلاً عن أنها تمثل وحدة الوجود فى غاية كماله وجلاله فإنها تمثل أيضًا وحدة البركة والرسالة التى تمثلّت فى هذا الرعيل من الأنبياء والمرسلين الذين لقى محمد فى إسرائه ومعراجه ، وهى خير مثال لوحدة هذا الدين الذى بعث به الأنبياء على اختلافهم .

وقصة إبراهيم التى يقص القرآن هى قصة رجل ألهم ما لم يلهم غيره من الناس فتبين ضلال قومه بعبادتهم لأصنام يصنعها أبوه ، لا تفقه ولا تعى ، وسأل أباه كيف يعبدها وهى من صنع يده ، وانصرف يقلّب وجهه فى السماء يتأمّل جلال هذا الكون وما عسى تكون تلك القوّة المبدعة الخلاّقة التى سوّته وأحسنت صنعه وظنّها القمر ثم ظنّها الشمس ولكنه رأى القمر والشمس يخضعان لما يخضع له سائر الخلق حتى هداه الله

---

(١) الإسراء آية ١ .

فأسلم وجهه إليه (فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبًا قال هذا ربى فلمّا أفل قال لا أحبُّ الآفلين . فلمّا رأى القمر بازغًا قال هذا ربى فلمّا أفل قال لئن لم يهدنى ربّى لأكوننّ من القوم الضالين . فلمّا رأى الشمس بازغةً قال هذا ربى هذا أكبر فلمّا أفلت قال يا قوم إنّى بريءٌ ممّا تشركون . إنّى وجّهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين[1]).

ولم ينجح إبراهيم فى هداية قومه فهجرهم بعد أن نجّاه الله منهم وارتحل غربًا نحو فلسطين ثم نزل منها إلى مصر حيث حلّت بالبلاد مجاعة ثم صعد إلى فلسطين مرةً أخرى وقد حمل معه هدايا الملك ومن بينها جارية هى هاجر التى أولدها بكره إسماعيل بعد أن دفعته زوجه سارة إلى الدخول بها إذ لم تنجب هى لإبراهيم وما أن شبّ إسماعيل عن الطوق حتى حملت سارة وولدت إسحٰق .

وشب إسماعيل وإسحق سويًّا يلقيان من عطف أبيهما على حدٍّ سواء وأنكرت سارة أن يكون لابن الجارية ما لابنها عند أبيهما ، وأقسمت ألّا تساكن هاجر وابنها حين رأت إسماعيل يضرب أخاه ، ورأى إبراهيم أن العيش لن يطيب للمرأتين معًا ، فحمل هاجر وابنها جنوبا حتى انتهى به الرحيل إلى وادٍ قفر تجتازه الرواحل شمالاً وجنوبًا فخلفهما فيه بعد أن ترك لهما بعض ما يتبلّغان به ونفد الماء والزاد وأخذت هاجر تجيل طرفها فيما حولها فلا ترى شيئًا فنزلت إلى الوادى تلتمس ماء وجعلت تهرول بين الصفا والمروة حتى أتمّت الهرولة سبعًا عادت بعدها إلى وليدها واليأس يجتاحها فوجدت الماء ينبع تحت قدمه فأروته وارتوت ، وحبست الماء عن السيل حتى لا يضيع فى الرمال واستهوى نبع زمزم بعض القبائل فأقامت

---

(١) الأنعام آية ٧٦ - ٧٩ .

إلى جواره وكانت جرهم أولى القبائل التى أقامت وإلى جرهم أصهر إسماعيل فاجتمعت فى ذريته دماء العبريين والمصريين وعرب الصحراء فكانوا ذوى بأس وقوّة وتمثّلت فيهم فضائل العرب والمصريين والعبريين[1] .

ويرفع إبراهيم قواعد البيت الحرام كعادته فى إقامة بيت الله حيثما يحلّ مثابة للناس وأمنًا ، ويعهد الله إليه وإلى ابنه إسمعيل أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، ويدعو إبراهيم ربّه أن يؤمن هذا البلد ويفيء على أهله الخير (وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمهن قال إنّى جاعلك للناس إمامًا قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين . وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمنًا واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر . قال ومن كفر فأمتّعه قليلًا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلّا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلاتموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى

---

(١) هيكل : حياة محمد ف ٢ .

قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق إلها واحدًا ونحن له مسلمون . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون[1] .)

وتقصّ الآيات البيّنات رسالة إبراهيم وعهده فتجمل بذلك رأى الإسلام فى العهد الإلهى وورثة هذا العهد من ذريته أو من الناس أجمعين ، فإن الله تعالى ليبتلى إبراهيم ويجربه فيجتاز التجربة ويتم كلمات الله ويقوم برسالته لم يفتن ولم يغير ولم يجحد فاستحقّ تلك البشرى وحلّت فيه بركة الله فجعله للناس إمامًا يهديهم إلى الله ويكون لهم قدوة ، ويرجو إبراهيم أن يفيء على ذريته ما أفاء الله عليه فتأتيه كلمة الله قاطعةً وهى ألّا إرث فى عهده فلن يناله إلا من آمن بالله واليوم الآخر ولن يكون أبدًا للظالمين فليست لهم إمامة أو خلافة أو قيادة ولو كانوا من ذريته .

أما البيت الذى رفع إبراهيم وإسمعيل قواعده بأمر الله فهو بيت الله الحرام وهو مقام إبراهيم ، وهو مثابة وأمن للناس جميعًا لا يصدّهم عنه أحد ولا يروّعهم فيه مروّع وهو مصلّى لهم لا يمنعهم أحد عنه فمن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه فليس البيت لقبيل دون قبيل ولا لأمة دون غيرها وليس إرثًا لأناس يمنعونه عمّن يريد أو يصدّون عنه من تهفو نفسه إليه بل هو للناس جميعًا وما لأحد عليه من سلطان .

وإذ عهد الله لإبراهيم وإسماعيل (أنّ طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) فهو عهد إليهما أن يقوما بسدانته وليس لهما فيه من حق غير هذا فالبيت بيت الله وليس ملكًا لهما وليس لهما أن يورثاه إلى غيرهما .

وتؤكد الآيات التاليات أمن البيت ومن يلوذ به كما تؤكد أن الإرث للبركة والرسالة فإن إبراهيم يدعو ربّه أن يفيء الأمن على بيته وأن يرزق

---

(١) البقرة آية ١٢٤ - ١٣٤ .

أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر أما الذين لا يؤمنون فيمهلون قليلاً ثم يضطرون إلى عذاب النار وليس لهم من فرار .

وإذ يرفع إبراهيم وإسمعيل القواعد من البيت فإنهما ليدعوان الله ويبتهلان إليه أن يتقبّل منهما وأن يفيء عليهما وعلى ذريتهما نعمة الإسلام وأن يبعث فيهم رسولاً يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم فتحلّ فيه بركة الرسالة ، رسالة الإسلام ، وفيمن تبعه بركة الإيمان وينتهى إليهم إرث إبراهيم بنعمة الإسلام ، فما كان إبراهيم إلّا مسلمًا بأمر ربّه اصطفاه الله وذريته لهذا الدين الحنيف الذى بعث عليه الأنبياء جميعا منذ إبرهيم حتى محمد عليهم السلام أجمعين ، وتلك أمة قد خلت لا تربطها صلة بأمة جاءت بعدها وضلّت طريقها فلكل منهما ما كسب ، ولا مجال للتعلق بوراثة قد تقطعت أسبابها فلا تسألون عما كانوا يعملون فلكل منهما حساب ولكل منهما طريق .

وهكذا تقطع تلك الآيات البينات بأن عهد إبراهيم هو عهد البركة والرسالة لمن آمن من بعده من ذريته أو من غير ذريته وإن كان الله قد كرمه أعظم التكريم فكان كل الأنبياء من نسله أما الإيمان فليس وقفًا على نسله بل هو للعالمين جميعًا ، فلا مكان للاختيار أو التميز أو الاستعلاء فى أمر يتساوى فيه الناس أجمعون ، والأرض أرض البركة وقد كنى الله تعالى عنها بالبيت الحرام هى لله وحده يورثها من يشاء من عباده الصالحين وهى للناس جميعًا من كل قبيل ومن كل أمة فإن كان الله قد وعد بها إبراهيم فلم يعد بها غير المؤمنين من ذريته .

وهذه هى كلمة الإسلام فى الوعد الإلهى لإبراهيم ومعنى هذا الوعد الإلهى ومدى ما لذريته من حق فى وراثته لا يختلف ما جاء به الإسلام عما جاءت به المسيحية ولا يختلفان معًا عما جاء فى التوراة .

وقد صدق الله وعده فكان من إبراهيم أمة كعدد نجوم السماء ، وكان منها أنبياء وملوك وورثت تلك الأمة أرض الميعاد كما يقص التاريخ بعد ذلك .

obeikandl.com